التوسع في التدبر... وقفة مراجعة

١٣/ ٩/ ١٤٣٦هـ

العودةُ المشـــاهدةُ لكتاب الله تعالى -تلاوةً وحفظًا ومدارسةً وتدبرًا وتصنيفًـــا في علومه- شيءٌ يبعث على البهجة والفرح؛ إذْ لا عزّ للأمة إلا بالعودة إلى هذا الكتاب العظيم، وسنةِ نبيّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفيـــما يخصّ موضـــوع (التدبر) فإن هـــذه الفرحة بدا مـــا ينغّصها، ويكدّرهـــا؛ مِن جرأة بعضِ الناس على خوض غِـــماره دون اكتمال الآلة التـــي تخوّله للحديـــث فيه[1]، لذا تنـــادى جمعٌ من أهـــل العلم وطلبته؛ وصرّحـــوا بضرورة التوعية بخطورة هذا التوســـع الذي يزداد يومًا بعد يوم، وخطـــورة فتح الباب على مصراعيه، دون ضوابط وأصول تعصِمه من الزلل، وتنفي الدخيل عنه.

ويؤكـــد أهميةَ هذه الدعوة: أنه -عبر حِقَب التاريخ- ما من مبتدعٍ أو صاحبِ مذهب منحرف إلا وقد يســـتدل لباطله من القرآن! على طريقة

(١) ســـبق أن كتبتُ مقالةً في العام الماضي عنوانها: (التدبر بين تباشير العودة، وخطر الجرأة) وهو منشور على الموقع الشخصي:

http://almuqbil.com/web/?action=articles_inner&show_id=.1320

(اتباع المتشابِه)، أو النظر الأعور للأدلة، والانتقائية الجزئية، وسرى هذا الداءُ إلى مقالات بعض الصحفيين، وأطروحات بعض الإعلاميين في عصرنا الحاضر.

إن المتابع لهذا الموضوع -وخصوصًا في السنوات الأخيرة- ومع انتشار مواقع التواصل، وبعض المقاطع المرئية التي بدأت تنتشر؛ يشهدُ أمورًا تبعث على الخوف والقلق من جرأة بعض الناس على اقتحام هذا الميدان! والكلامِ في معاني كلام الله جَلَّوَعَلَا دون ضوابط أو أصولٍ علميةٍ؛ ما يستوجب من الجميع بذلَ النصح، قبل استفحال الأمرِ وتفاقمه.

إننا وكما نتواصى بتدبر القرآن -كما أمر الله- فيجب أن نتواصى بأن يكون ذلك وفق الطرق العلمية الصحيحة، ونحن كما نجزم بأن من أراد أن يمتثل الأوامر المجملة في القرآن كقول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[البقرة:٤٣] لا يمكنه تحقيقُ ذلك إلا وفق الصلاة الشرعية التي بيّنتها السنة، فكذلك لا يمكن امتثال أمر الله بالتدبر إلا وفق هدي النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وصحابته، ومن سار على نهجهم في فهم القرآن.

وإذا كنا نفرحُ بهيبةِ عموم المسلمين من تفسيرِ كلمةٍ غريبةٍ دون الرجوع لكلام العلماء؛ فكذلك ينبغي أن يستقر في أذهانهم عدمُ التجرؤ على نشر التدبر إلا بعد التثبت والتبين من المعنى، فكِلا الأمرين -التفسير والتدبر- بابهما واحد؛ إذْ المراد منهما الفهم، ثم ما يتبعه مِن عملٍ قلبي أو بدني.

لقد مرّ بي ألوانٌ من تدبرات بعض الإخوة المنشورة على مواقع التواصل، أو وصلتني عبر رسائل نصية، وبعضُها عبر مكالماتٍ هاتفيةٍ،

تؤكّد وجوب المسارعة لضبط الأمر، والدعوة إلى التريث وعدمِ العجلة في النشر، ومن ذلك:

- تعليقُ بعضِهـــم على قوله تعـــالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾[محمد:٢٢-٢٣]، حيث قرر أن مِن الناس مَن يصوم، ويصلي، ويقرأ القرآن وهو ملعون! وأن القاطع لا يستفيد مِن القرآن، ولا مِن المواعـــظ، ولا من أيّ عبـــادة، وإن ختم القرآن أكثـــر من مرة، وقام الليـــل! لماذا؟ لأنه قاطعٌ لرَحِمه!! وأضـــاف أن عمَله لا يرتفع إلى الله ما دام قاطعًا! بل يَبقى معلّقًا، مع أن الآية لا تدل على ذلك، ولا يدل عليه الحديثُ الذي استشهد به، وهو قوله ﷺ: «**تفتح أبواب الجنة يوم الإثنين ويوم الخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شـــيئًا، إلا رجلًا كانت بينه وبين أخيه شـــحناء، فيقـــال: أنظروا هذين حتى يصطلحـــا**»[1]، فالحديث يدل عدم نيل فضيلة المغفرة التي تتكرر كلَّ أســـبوع مرتين، ولم يتحدث عن مسألة القبول! فانظر كيف تنقّل هذا الأخ من خطأ إلى خطأ!

- علّق أحد الإخوة على قوله تعالى: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾[طه:١٢] فقال: «خلَعَ النعلينِ فأوتي العصا، اخلع الدنيا من رجلك تمسك الهبات بيدك!»، فأين هذا من الآية؟ والآية إنما فيها الأمرُ بخلع النعلين لسبب -ذَكَره بعضُ المفسرين- وهو أن موسى كان يلبس نعلين مِن جلد حمار، فلا ينبغي أن يدخل بهما في الواد المقدس الذي سيكلم ربَّه فيه.

---

(١) رواه مسلم (رقم٢٥٦٥).

- ومـرّ بي كلامٌ لأحدهم يعلّل فيه سـبب حذف حرف (مِـن) من قوله تعـالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة:١٠٠]، وأخذ يفصّـل تفصيلًا يكفي في نقضه أن تعلمَ أن هذا الحرف (من) ثابت في قراءة ابن كثير المكي، وهي قراءة سبعية متواترة.

- ومِن أعجب ما سـمعت، ما قاله لي أحدُهم في مكالمة هاتفية: معللًا تسمية موسى بهذا الاسـم، أخذًا من الموس؛ لأجل أن يزيل فرعون من جـذوره!! وادّعى هذا الشـخصُ أن التدبر يمكـن لكل أحد، ولا يوجد حاجة للرجوع إلى كلام العلماء؛ لأن كلامهم غير معصوم، وأن تدبر القـرآن مفتوحٌ للجميع؛ لأن الله أمرنـا به جميعًا! ولك أن تتصور ما الذي سيصدر عن مثل هذا من تعليقات بل طوام!

ومن صور هـذه التدبرات الجائرة عن القصد: مـا يكون بعيدًا عن السـياق -وهو من أقوى المرجّحات في التفسير وفهم المعنى- أو يتكلم بما يخالف تفسـير النبي ﷺ أو الصحابة والتابعين، أو يكون هذا المتدبر لا يعرف مبادئ علم أصول الفقه، الذي يعنى بالناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيّد، والعام والخاص، فضلًا على القصور في علم القراءات، وعلوم اللغة العربية التي قد تكون هي المرجّح الأقوى في بعض المواضع.

إنّ الدعـوة إلى تدبـر القرآن حسـنةٌ، لكن لا يصـح أن تكون بهذا الإطلاق الذي يُشـيعه بعضُ الفضلاء؛ لما سبقت الإشـارةُ إليه، فبابُ التفسـير والتدبر واحدٌ من حيث الأصل، وإن كان في باب التدبر سـعةٌ من جهة أن اسـتنباط المعاني والإشارات يقع وإن كان معنى اللفظة ليس

غريبًـا، إلا أن ذلك -أيضًا- لا يعني أن يكون التدبر غير منوط بضوابط -كما سـبق- خصوصًا مع فشـوّ هذه التعليقات على الآيات في مواقع التواصل، التي صار غالبُ الناس يتلقى منها دون تمحيص.

إنه ليحقُّ لكل غيورٍ على كتاب الله أن يتسـاءل: إذا كنّا نسـتنكر على الصحفي الـذي ليس مؤهلًا للـكلام في معاني الله، فلـماذا يخفت هذا الصوت حينما يكون المتكلّم من المنتسبين للمحاضن القرآنية، وهو ليس مؤهلًا؟ مع أن الصورة واحدة!

لقد بـذل العلماء جهـودًا في صيانة القرآن، ونفـيِ الدخيلِ عنه من التفاسـير البدعية والشـاذة؛ فعلينا كذلك أن نتعاون عـلى صيانته من التدبرات الشاذة والخاطئة؛ فهذا من جملة النصيحة لكتاب الله التي نص عليهـا النبي ﷺ في حديث تميم الداري المشـهور، ولا يصح أن يفسَّر هـذا بأنه تضييقٌ على الناس، بل هو صيانـةٌ لكلام رب العباد من العبَث بمعانيه، وتصديرِها للناس عبر هذه الوسـائل التي تنقل المعلومةَ لملايين خلال دقائق معدودة، وإذا كنا نستعظم أن يتصدر لتفسير القرآن من لم تكتمل له أداتُه؛ فلماذا صار التدبر منبرًا سهلًا يصعده كلُّ أحد؟!

هذه أسطرٌ حملَ عليها النصحُ والمحبةُ لإخواني المسلمين، مِن أن يتكلم أحدُنا في كتاب الله دون علمٍ، أو بيّنة، وهي في الوقت نفسه دعوةٌ للتدبر بضوابطـه العلمية، وأصوله المرعيّة، وأن نحذَر مِـن فتنةِ النشر وتدوير التغريدات والمقاطع المصورة -التي أغرت بها وسـائلُ التواصل- قبل التثبت والتبين، وأن يكون همُّ أحدنا نجاته يوم يسأله اللهُ يوم القيامة عما قال في كلامه، لا أن يكون المسيطر هو ذاتُ النشر، والله المستعان.